

انتقال التصوف إلى بلاد المغرب الإسلامي

شرويك محمد الأمين

طالب دكتوراه تخصص تاريخ

جامعة جيلالي ليابس

ملخص :

يأتي هذا العمل الذي يتناول انتقال التصوف إلى بلاد المغرب الإسلامي كمحاولة منا لإضافة لبنة في الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، حيث أنجزت عدة بحوث ودراسات كما نشرت مقالات في بعض المناسبات وكان ضمن هذه الدراسات إشارات إلى انتقال التصوف إلى بلاد المغرب الإسلامي، ولكن لا توجد حسب علمنا دراسة تاريخية متخصصة تتضمن فكرة شاملة عن التصوف المغاربي وعوامل انتشاره، ومن هنا يكمن سبب اختيار هذا الموضوع لنجعل منه دراسة خضنا من خلالها في مراحل انتقال التصوف ومعايشة أهله وإبراز أدواره، هذا بالإضافة إلى دافع الرغبة في استجلاء بعض الحقائق التاريخية والمساهمة قدر الإمكان في عملية البناء التاريخي لحقبة من تاريخنا الإسلامي المغاربي.

الكلمات المفتاحية: التصوف، الصوفية، المغرب العربي، عوامل انتشار الصوفية،

مقدمة:

إن بلاد المغرب الإسلامي كبقية أقطار العالم الإسلامي عرفت انتشارا لظاهرة التصوف ولا يختلف اثنان حول الدور الهام الذي قامت به أقطار المغرب الإسلامي في إثراء التجربة الصوفية في العالم الإسلامي، ومساهماتها في هذا الميدان لا تقل عن مساهمات كبريات البلدان الإسلامية مثل العراق وبلاد الشام ومصر وما لهذه الدول من السبق في المشاركة الفعالة والهامة في التأسيس لهذا العلم والتنظير له بالإضافة فيه وتطويره وخدمته.

وفي هذا السياق يأتي هذا العمل الذي يتناول انتقال التصوف إلى بلاد المغرب الإسلامي محاولة منا إضافة لبنة في الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، حيث أنجزت عدة بحوث ودراسات كما نشرت مقالات في بعض المناسبات وكان ضمن هذه الدراسات إشارات إلى انتقال التصوف إلى بلاد المغرب الإسلامي، ولكن لا توجد حسب علمنا دراسة تاريخية متخصصة تتضمن فكرة شاملة عن التصوف المغاربي وعوامل انتشاره، ومن هنا يكمن سبب اختيار هذا الموضوع لنجعل منه دراسة خضنا من خلالها في مراحل انتقال التصوف ومعايشة أهله وإبراز أدواره، هذا بالإضافة إلى دافع الرغبة في استجلاء بعض الحقائق التاريخية والمساهمة قدر الإمكان في عملية البناء التاريخي لحقبة من تاريخنا الإسلامي المغاربي.

ومن هنا أمكننا أن نطرح إشكالية متمثلة في: ماهي عوامل ومراحل انتقال التصوف إلى بلاد المغرب

الإسلامي؟ وما هي أهم خصوصيات التصوف المغاربي؟

1 - ظهور التصوف ببلاد المغرب الإسلامي

إهتم جملة من الباحثين والدارسين عوامل ظهور التصوف في بلاد المغرب الإسلامي بحيث أرجأ الهادي روجي ادريس - Hadi Roger Idres - الظاهرة إلى النهضة المالكية في القيروان منذ القرن الثالث الهجري - التاسع ميلادي - في مواجهة الشيعة،⁽¹⁾ واختزل روبال برنشفيك - Robert Brunshvig - أسبابها في تأثير المشرق على المغرب، وحصرها ليفي بروفنسال - Lévi provincial - في تأثير المعتقدات الوثنية على البربر وحركة الجهاد ضد الاسترداد المسيحي،⁽²⁾ واعتبرها جاك كريت - Jaques Cret - نتاج انتشار أفكار أبي حامد الغزالي (ت 505هـ) الصوفية الذي أعطى للتصوف مكانة مرموقة في الإسلام، ويضاف إلى ذلك أيضا بسبب اتساع دائرة الفقهاء وسيطرة الفقه على النشاط الفكري.

لقد ربطت أغلب الدراسات التي أرخت للموضوع ظهور التصوف ببلاد المغرب الإسلامي بعوامل منها: التواصل بالشرق عن طريق الرحلات العلمية والحج إضافة إلى مساهمة الدولة الموحدية والتأثير الأندلسي وانتشار الرباطات.

2- انتقال التصوف إلى بلاد المغرب الإسلامي:

يرجع أغلب الباحثين ظهور التصوف في بلاد المغرب إلى مؤثرات متنوعة أهمها:

2- 1- التواصل بالشرق:

عرفت العلاقة بين المشرق والمغرب الإسلاميين تفاعلا في ميادين مختلفة أهمها الميدان الصوفي حيث انفتح المغرب الإسلامي على التطور الإسلامي الذي أدى إلى ظهور المدرسة الصوفية.

حيث ساهمت الرحلات من المغرب إلى المشرق لدواعي مختلفة ومتنوعة كطلب العلم وأداء مناسك الحج أو للعمل التجاري في التواصل الصوفي بالشرق والاتصال بأعلام التصوف عن طريق التتلمذ عليهم أو الإطلاع على مذاهبهم واتجاهاتهم في هذا المجال أو الاستفادة من الكتب والمؤلفات الصوفية " كالرسالة القشيرية " للقشيري، و" قوت القلوب " للمكي، و" إحياء علوم الدين " للغزالي.⁽³⁾

ويرجع الباحثون انتشار التصوف في بلاد المغرب إلى القرن الخامس والسادس للهجرة/الحادي عشر والثاني عشر للميلاد عندما بدأ كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي يشير جدلا كبيرا في المجتمع المغاربي خلال فترة حكم المرابطين نظرا لما يحمله من أبعاد صوفية وتأويلات لآيات القرآن والأحاديث النبوية، فطلب "يوسف بن تاشفين"⁽⁴⁾ من قاضي قرطبة بإحراق كتاب " الإحياء " وأفتى الفقهاء بذلك وتوعد من وُجد عنده.⁽⁵⁾

وقد ذكر بن الزيات في "التشوف" بقوله: ((وحدثني علي بن عيسى عن شيوخه أنه لما أفتى الفقهاء بمراكش بإحراق كتاب الإحياء للغزالي أحرق بصحن جامع السلطان))⁽⁶⁾.

وكان لهذه السياسة نتائج عكسية تدعم مكانة رجال التصوف وزيادة الإقبال عليهم في كنف الدولة الموحدية، والاهتمام بكتاب الإحياء للغزالي نظرا لما تضمنه من مظاهر الابتعاد عن الدنيا وحب الله والدعوة إلى الاهتمام بالجانب الروحي والتعشق والصلاة والتأمل الدائم، فحاول الكثير من الأتقياء والعلماء إتباع هذا الجانب.⁽⁷⁾

ومما يتضح أيضا الترابط الصوفي بين بلاد المشرق والمغرب بسند أو سلسلة روحية تتمثل في سلسلة من الشيوخ تبدأ من الشيخ المرشد إلى شيخه المباشر وتتدرج لتترقى إلى بعض كبار من أمثال الجنيد ثم التابعين وإلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.⁽⁸⁾

واستنادا إلى رواية أبي مدين شعيب بقوله: ((وطريقتنا هذه أخذناها عن أبي يعزى بسنده عن الجنيد عن سري السقطي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن رب العالمين))⁽⁹⁾.

ومما يجدر ذكره في الرجوع إلى الأصل المشرقي والتفاعل المغاربي في الميدان الصوفي قصة ذكرتها "زكية زوانات" نقلا عن ابن مبارك اللمطي (ت1156هـ، 1743م) في كتابه "الذهب الإبريز من كلام عبد العزيز" أن رجلا كان شيخ ركب الحجيج وكان من بلاد المغرب وكان يعتني كثيرا بلقاء الصالحين ويحبهم ويفتش على الذي يريح على يديه، فكان هذا دأبه إذا طلع إلى المشرق وإذا رجع إلى المغرب، فالتقى بمصر مع بعض الصالحين فأعطاه أمانة وقال له الرجل الذي يطلبها منك هو صاحبك، فما زال يطوف على الصالحين الذين يعرفهم واحدا واحدا حتى قدم لبلده ودخل داره وبقي ماشاء الله، فلقيه ذات يوم جاره فقال له أين الأمانة التي أعطاك فلان بمصر؟ فعلم أن جاره صاحب الوقت، وهذا دلالة على عمق العلاقة الصوفية بين المشرق والمغرب.⁽¹⁰⁾

2-2 - مساهمة الدولة الموحدية:

ساهمت دولة الموحدين في نشأة الحركة الصوفية في بلاد المغرب وانتشارها، حيث أن المهدي بن تومرت (527هـ/1125م) تتلمذ على يد أبي حامد الغزالي وحمل أفكاره ونشرها في المغرب إضافة إلى الذي لعبه حكام الدولة في إزالة العداوة نحو كتاب "إحياء علوم الدين" بزوال الدولة المرابطية، وقد وجد هذا الكتاب رواجاً في المغرب فألف بعض العلماء كتباً على منواله مثل كتاب "التفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات" لأبي الحسن بن علي بن محمد المسيلي (ت580هـ).⁽¹¹⁾

كما ساهم الموحدون في فتح المجال أمام التطور الفكري والعقلي وحتى العقدي في إدراك الله وصفاته التي وردت في مؤلفات بن تومرت وكانت تعتمد على العقل كوسيلة للوصول إلى التوحيد والعبادة الصحيحة والأخذ بالعقيدة الأشعرية.

كما حاولوا إزالة القيود التي وضعها فقهاء الدولة المرابطية،⁽¹²⁾ مما كان له الأثر في انتشار التصوف في بلاد المغرب وأصبحت الكتب الصوفية "كالإحياء" و "الرسالة القشيرية" تدرس في المؤسسات التعليمية وفي المجالس الفقهية والفكرية.⁽¹³⁾

ويرجع بعض الكتاب ازدهار الفكر الصوفي وتبلور اتجاهاته ومدارسه وانتشاره في الأوساط الشعبية والبوادي إلى مذهب التوحيد الذي جاء به "بن تومرت" لم يلَبَّ حاجة الناس الروحية وأفرط في الجانب العقلاني وفرض على الناس القوة مما كان له نتائج عكسية بانضواء القبائل في هذا المجال واندماجهم فيه كلية وتخليهم عن المال والعز والنفوذ.⁽¹⁴⁾

كما يرى بعض الباحثين أن مذهب الأشاعرة الذي يفضل الموحدون هو مذهب يقر بالأولياء والصالحين ويرى في كراماتهم تصديقا بمعجزات الأنبياء.

وتجدر الإشارة أن المتصوفة أصبحوا يشكلون شريحة واسعة في المجتمع الموحد مما جعل الحكام يتقبلون التعامل مع هذا الواقع، ووجدوا غطاء سياسيا يبرر سلوكياتهم وتصرفاتهم وساعدهم ذلك في حرية نشاطهم، ولكن هذا لا ينفي وجود مراقبة وتقصي لأخبارهم في الفترات الموالية إذا لزم الأمر.⁽¹⁵⁾

2- 3- التأثير الأندلسي:

شكلت الهجرة الأندلسية إلى بلاد المغرب وخاصة هجرة رجال التصوف إما عائدين من المشرق واستقرارهم ببلاد المغرب أو قادمين من الأندلس عاملا رئيسيا في انتشار التصوف حاملين معهم أفكار ومصنفات صوفية ويأتي في مقدمتهم أبو مدين شعيب⁽¹⁶⁾ (ت594هـ/1198م) الذي نزل بجاية سنة 559هـ واستقر بها بعد رحلة مشرقية حاملا إليها كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي والرسالة القشيرية لأبي هوزان القشيري وتدرسه لكتب الصوفية بها، إضافة إلى اتصاله بالشيخ عبد القادر الجيلاني وأخذه عنه طريقته الصوفية ونشرها في كل أرجاء المغرب.⁽¹⁷⁾

ويبدو أن الأندلسيين ساهموا بقسط وافر في نشر التصوف وازدهاره وإقبال الناس على أفكاره وأعلامه، فبالإضافة إلى أبي مدين شعيب هناك شخصيات أخرى نذكر منها على سبيل المثال الشيخ " بن عريف" (ت610هـ/1215م)⁽¹⁸⁾، وابن عربي وابن سبعين (ت590هـ/1195م) الذين ساهموا في بلورة اتجاهات التصوف وأفكاره المعروفة ببلاد المغرب.

2- 4- تأثير الرباطات:

انتشرت الرباطات بسواحل المغرب الإسلامي وكانت تهدف بالدرجة الأولى إلى الدفاع عن السواحل المستهدفة من طرف الغارات الأجنبية⁽¹⁹⁾، لكن هذا لم يمنع المسلمين المرابطين بهذه المراكز الاشتغال بالعبادة والاهتمام بالزهد، فقد كان المسلمون من مختلف الشرائح يجتمعون فيها واشتهرت بها المبادئ التربوية والعلمية فقد كانت الحلقات العلمية تؤدي رسالة أدبية وعلمية ودينية.⁽²⁰⁾

ونظرا للتطورات التي عرفها الرباط فإنه أصبح مأوى للصوفية خاصة عندما شكل ما يعرف بالرباط ذو النشاط الديني والتربوي، وازدهر النشاط الصوفي بها حيث اشتغل الشيوخ بتكوين المريدين وتربيتهم على المجاهدات والزهد والتجرد من الدنيا وملذاتها مع التركيز على الأوراد والأذكار.

فقد عرف المغرب الأوسط انتشارا لهذه المراكز وخاصة في بجاية وإفريقية وقامت بأدوار كبيرة في نشر التصوف بالمنطقة، وقد عبر عن ذلك الطاهر بونابي بقوله: "أن الحركة الصوفية التي شهدتها المغرب في القرنين السادس والسابع الهجريين 12 و 13 للميلاد هي نتاج عمل الرباط والرابطة".⁽²¹⁾

عوامل ومراحل انتشار التصوف ببلاد المغرب الإسلامي.

كان لظهور التصوف وانتشاره ببلاد المغرب الإسلامي ارتباط كبير بظروف وعوامل متنوعة أهمها⁽²²⁾

أ- عوامل الانتشار:

1- العوامل السياسية:

الوضع السياسي العام الذي عرفته المنطقة من اضطراب وفوضى وعدم الاستقرار خاصة في ظل الدويلات الثلاث، الدولة المرينية في المغرب الأقصى⁽²³⁾ والدولة الزيانية في المغرب الأوسط⁽²⁴⁾ والدولة الحفصية في المغرب الأدنى⁽²⁵⁾، والصراع المستمر بين الأسر الحاكمة⁽²⁶⁾ والفتن الداخلية مما جعل الطبقة الشعبية تؤثر اللجوء إلى التصوف كوسيلة للتخلص من الأوضاع المتردية وهذا ما كان له الأثر في التصديق بالكرامات وتقديس الأولياء⁽²⁷⁾ وانتشار ظاهرة التصوف.

إن تدخل القوى المسيحية الإسبانية والبرتغالية واحتلالها لبعض الثغور والسواحل بالمنطقة وعجز الدويلات المتصارعة على مواجهة هذا الخطر، جعل من رجال التصوف والمرابطين يعتمدون على أنفسهم في الدفاع عن المناطق المحتلة، فأصبحت الرباطات والزوايا تشكل تجمعا للمجاهدين ومراكز للعبادة وخلوة للعزلة والابتعاد عن صخب الدنيا فكان ذلك عاملا هاما في انتشار التصوف في هذا الإطار الجغرافي.

2- العوامل الفكرية:

كان لظهور أعلام التصوف ببلاد المغرب وأثرهم الكبير في ازدهار الحركة الصوفية بالمنطقة ومنهم أبو مدين شعيب (ت594هـ) وأبو الحسن الشاذلي (ت656هـ) وأبو العباس مرسي (ت686هـ) وعبد الرحمن

الثعالبي(ت875هـ) وإبراهيم التازي(866هـ)، كان لهم أثر كبير في انتشار التصوف إضافة إلى الاتصال بالشرق وأعلامه الصوفية الكبار وكانت لهم في ذلك مذاهب واتجاهات.

تنوعت المؤلفات الصوفية المشرقية والأندلسية والمغربية والتي كانت تدرس للطلبة في الزوايا والمعاهد واستفاد منها الموحدون في تكوينهم الصوفي، ومن هذه المؤلفات كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي أبي حامد، و"الرسالة القشيرية" للقشيري، و"قوت القلوب" لأبي طالب المكي و"حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني، وكتاب "فضل قيام الليل وتلاوة القرآن" لأبي بكر الأقرعي وكتاب "الإرشاد" لأبي المعالي، وغيرها من المؤلفات التي تضمنت الحث على الزهد والتصوف وما فيه من فضائل ومزايا.⁽²⁸⁾

3- العوامل الاقتصادية والاجتماعية:

إن الثراء الاقتصادي الذي عرفه المغرب الإسلامي في فترات مختلفة وما ينتج عنه من ترف وبذخ كان له الأثر الكبير في تغير البنية الاجتماعية بظهور طبقة الأثرياء والتجار والطبقة الشعبية العاملة التي قد تلجأ إلى التصوف للتعبير عن الزهد في الدنيا والمال، واعتبار أن التقوى والصلاح هو أساس المكانة الاجتماعية، إضافة إلى ما قد ينتج عن الترف من انحراف خلقي وانتشار الآفات الاجتماعية وإنكار العلماء ورجال التصوف لهذه التصرفات بالدعوة للتغير أو الانعزال ابتعادا عن صخب الحياة الدنيا وتأثيرها.

كما أدى أيضا انعكاس الأوضاع الاقتصادية المتردية والذي عرفته المنطقة وما ترتب عنه من مجاعات ومشاكل كان له الأثر الكبير في انتشار التصوف على أساس أن الفقر والحاجة يعتبر من خطوات التصوف، وهذا الاسم اقترن باتباع الطرق الصوفية فأصبح يطلق عليهم الفقراء.

ولعل خير مثال على تأثير الوضع الاقتصادي على السكان ما حدث في الجزائر خلال العهد العثماني من سياسة جباية الضرائب التي اتبعتها الحكومة والتي كان لها الأثر الكبير على الأوساط الشعبية التي أضحت تبحث عن طرق أو قوة جديدة تحميها وتلتف حولها، فتجلى ذلك في رجال التصوف والطرق الصوفية التي كانت بمثابة المدافع عنها.

ب- مراحل الانتشار:

يمكن تقسيم مراحل انتشار التصوف إلى مرحلتين أساسيتين هما:

1- مرحلة التصوف النخبوي:

يرجع بعض الباحثين ظهور التصوف ببلاد المغرب إلى فترة الفتوحات الإسلامية ابتداء من القرن الثاني الهجري إلى وجود بعض الشخصيات التي اختارت الزهد والتعبد ومن بينها بكر بن حماد التاهرتي(ت295هـ) والذي درس على يد الإمام سحنون وتأثر بالتصوف والزهد في أشعاره، وأبي القاسم عبد

الرحمن الهمداني المعروف في الجزائر بالوهراني (ت411هـ/1018م) والذي استقر بالقيروان وتميز بالورع والسخاء والزهد وغيرهم كثير.⁽²⁹⁾

غير أن الانتشار الحقيقي للتيار الصوفي بالمغرب الإسلامي ارتبط بفترة الحكم المرابطي والموحدي الذي عرف فيه تأثرا بالتيار المشرقي وفكر أبي حامد الغزالي، وما ميّز التصوف في هذه المرحلة والتي امتدت إلى القرن 08هـ. ظهور شخصيات صوفية حملت لواء التصوف كتجربة عملية وكأفكار وتوجهات فلسفية والتي اقتصر على الطبقة المتعلمة وارتبطت بالحوضر الكبرى ببلاد المغرب الإسلامي كالقيروان وتلمسان وبجاية وفاس وتبادل التأثير من خلال الرحلات.

ومن بين أبرز الشخصيات التي مثلت التصوف السني خلال هذه المرحلة نذكر أبا مدين شعيب الإشبيلي وأبو الحسن الشاذلي وأبو العباس مرسي وأبو العباس السبتي. كما ظهر في هذه المرحلة شيوخ مثلوا التصوف الفلسفي منهم ابن مسرة الأندلسي، وابن عريف وأبو بكر بن عربي وأبو الحسن الششتري (668هـ).

ومن خصوصيات التصوف في هذه المرحلة طابع المجاهدة العملية والاهتمام بالعلوم الدينية والالتزام بالفرائض والاعتكاف في البوادي والأرياف، خاصة خلال القرن 07هـ/13م بفضل الشيوخ الذين تكونوا في الحواضر ورجعوا إلى مواطنهم وأسسوا الزوايا لتعليم مبادئ التصوف من خلال المصنفات الصوفية، وما تضمنته من أساليب روحية تربوية وتبسيطها للعامة.⁽³⁰⁾

ولم تكن لرجال التصوف في هذه المرحلة تدخلات في شؤون الحكم أو مواجهة الأمراء والسلطين أو عصيانهم زهدا منهم في السلطة وتجنباً للفتنة مثل ما فعل أبو مدين شعيب وأبو يعزى وأبو العباس السبتي، وهذا لا ينفي تخوف الحكام منهم نظراً لارتباطهم بالطبقة الشعبية والتجاء الناس إليهم مثل ما هو الحال بالنسبة للسلطان المنصور الموحدي⁽³¹⁾ الذي تخوف من نفوذ أبي مدين شعيب فاستدعاه إليه رغبة في لقائه واختباره لكن ذلك لم يتحقق، وكانت إجراءات الحكام ضد رجال التصوف خوفاً من قيام ثورة ضد سلطانهم.

لكن هذا لا ينفي وجود جهود مبذولة من طرف بعض المتصوفة لإصلاح فساد السلطين وبذل النصح لهم، وإتباع كذلك بعض الخاصة من الأمراء والسلطين للاتجاه الصوفي والإقبال عليه.

2- مرحلة التصوف الشعبي:

عرف التصوف ببلاد المغرب تطوراً خلال القرن 10هـ/16م وذلك بانخراط عدد كبير من الناس في الزوايا والاهتمام بتقديس الأولياء، وأصبحت الظاهرة الصوفية تستوعب مختلف الفئات الاجتماعية ومن مستويات ثقافية متنوعة، فعم هذا الفكر أغلب شرائح المجتمع.⁽³²⁾

كما تميز هذا القرن بتأليف شيوخ التصوف لمصنفات وتراجم صوفية اهتمت بأعلام التصوف من مختلف الطبقات والتركيز على مناقبهم وآثارهم وكراماتهم.

وارتبط انتشار التصوف ببلاد المغرب خلال هذه المرحلة بظهور الاهتمام بالأسر الشريفة التي ينحدر نسبها من البيت النبوي الشريف، وفكرة المراتب التي تقوم أيضا على انتماء قبلي والأصل الشريف، وهذا ما جعل المجتمع المغربي يعتقد في سلطة المراتب واتخاذها واسطة له، مما ساهم في انتشار التصوف في الأوساط الشعبية.⁽³³⁾

وقد أخذت الحركة الصوفية تنمو ببلاد المغرب وتنتشر انطلاقا من القرن الخامس عشر لتعرف توسعا خلال القرن السادس عشر نتيجة لأحداث هامة أهمها:

سقوط الأندلس والغزو الأجنبي الذي تمثل في احتلال إسبانيا والبرتغال للسواحل المغربية إضافة إلى تراجع الدويلات الثلاث مما أدى إلى سقوطها، دولة بني مرين 1549م، دولة بني عبد الواد 1555م، والدولة الحفصية 1574م.

وقد كان للأوضاع السياسية المذكورة أثر كبير في ازدهار التصوف الشعبي وظهور الطرق الصوفية التي وجدت مناخا ملائما لنشاطها، حيث قامت الطريقة الشاذلية بإفريقية بمواجهة الاحتلال الإسباني والملك الحفصي المتحالف معهم، واضطلعت الطريقة الجزولية في المغرب الأقصى ببعث المقاومة ضد الاحتلال المسيحي البرتغالي عن طريق مؤسسها محمد الجزولي (1465 - 1470م) بدعم من الأسرة السعدية والتي قامت على أساس ديني مستندة إلى الأصل الشريف وتمكنت من الوصول إلى الحكم.

كما عرفت الحركة الصوفية في الجزائر ازدهار بمجيء العثمانيين نظرا لما تميزوا به من ولاء لرجال التصوف والتبرك بهم، مما ساهم في ازدياد وانتشار التصوف والطرق الصوفية، وكذا الدعم الذي وجدوه من الطريقة القادرية والتحالف معها لمواجهة الخطر الإسباني حتى أواخر القرن السابع عشر⁽³⁴⁾ مظهرا من مظاهر النفوذ الصوفي.

وكان لازدهار الحركة الصوفية في بلاد المغرب دور أساسي في تحديد معالم الحياة العامة بأبعادها السياسية والاجتماعية، فتغلغل في الأوساط الشعبية فأصبحت سمة العصر والمناخ السائد يتنفس من خلاله العامة والخاصة في المدن والقرى والأرياف، وانتشرت معه ألقاب مثل: الولي، الغوث، القطب وانخرط الناس في الزوايا واشتغلوا بالذكر والخلوة وآداب الصلوة.⁽³⁵⁾

ولم يتوقف الازدهار الذي عرفه التصوف في القرن السادس عشر عند هذا الحد بل انتشرت معه الطرق الصوفية على نطاق واسع في القرن الثامن عشر والرابع الأول من القرن التاسع عشر، وتعددت

أسمائها وفق أسماء مؤسسيها وأهمها الشاذلية والقادرية والخلوتية، وتنوعت أدوارها في المجتمعات المغاربية في ميدان الرعاية والتعليم وأصبحت البديل عن الحكومة.⁽³⁶⁾

خاتمة:

أرجع الكثير من الباحثين والمهتمين أسباب وعوامل انتقال التصوف إلى بلاد المغرب الإسلامي إلى النهضة المالكية في القيروان منذ القرن الثالث للهجرة، كما أرجعها البعض الآخر إلى نتاج انتشار أفكار أبي حامد الغزالي، لكن الرأي الأرجح لدى أغلب الدراسات التي أرخت لهذا الموضوع أرجعتها لعوامل عدة منها التواصل بالمشرق عن طريق الرحلات العلمية والحج إضافة إلى مساهمة الدولة الموحدية والتأثير الأندلسي وانتشار الرباطات التي ارتبطت أولا بالنشاط العسكري ثم نمت سريعا لتصبح فيما بعد أماكن يفرع إليها الناس لتحقيق أمنهم الدنيوي، إلى جانب أنها أصبحت أيضا مراكز للحياة الدينية والصوفية. انتشرت الطرق الصوفية في بلاد المغرب الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري نتيجة الاتصال بالمشرق عن طريق الحج والرحلات العلمية والتتلمذ على أعلام التصوف وانتشار مؤلفاتهم فظهرت ببلاد المغرب عدة طرق صوفية انبثقت أساسا من طريقتين أساسيتين هما الطريقة القادرية والطريقة الشاذلية.

الإحالات و الهوامش:

- 1- الطاهر بونابي، **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين/12 و13 للملايين**، عين مليلة، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2004، ص: 46.
- 2- نفسه، ص: 46.
- 3- عبد الرحمن تركي، **نشأة الطرق الصوفية بالجزائر دراسة تاريخية**، الملتقى الدولي الحادي عشر حول التصوف والتحديات المعاصرة، منشورات جامعة آدرار: المطبعة العربية غارداية، 2008، ع: 1، ج: 2، ص: 352.
- 4- يوسف بن تاشفين من أمراء المرابطين حكم في فترة (500 - 537 هـ)، (1106 - 1142 م) تميز عهده بالاضطراب وقيام ثورات في الأندلس وقيام حركة المهدي بن تومرت، أنظر: عبد الواحد ذو نون طه وآخرون، **تاريخ المغرب العربي**، بيروت: دار المدار الإسلامي، ط: 1، 2004، ص: 323.
- 5- بن حيدة يوسف، **الطرق الصوفية في الجزائر وبلاد المغرب ودورها في نشر الوعي والإخاء والتضامن الإجتماعي**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تحت إشراف أ.د مكحلي محمد، جامعة سيدي بلعباس: كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، قسم التاريخ، 2010/2011 م، ص: 17.
- 6- ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق: أحمد توفيق، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997، ط: 2، ص: 145.
- 7- بن حيدة يوسف، المرجع السابق، ص: 18.
- 8- بوداود عبيد، **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط مابين القرنين السابع والتاسع الهجريين** ق 13 - 15 م، وهران: دار الغرب للنشر والتوزيع، 2003، ص: 43.
- 9- ابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، ص: 115.
- 10- بن حيدة يوسف، المرجع السابق، ص: 19.

- 11- نفسه، ص: 19.
- 12- دولة المرابطين (448- 511هـ/ 1066- 1147م) أنظر: ذو نون طه وآخرون، المرجع السابق ص- ص: 286- 303. أنظر كذلك: عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، دراسات في المغرب والأندلس، القاهرة: دار الفكر الأندلسي، 1999، ص: 251- 255.
- 13- عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2002، ج: 2، ص: 384.
- 14- يوسف عابد، الموحدين في بلاد المغرب (515- 595هـ/ 1120- 1199م)، دراسة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، دراسة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإسلامية، 2006، ص: 138.
- 15- بن حيدة يوسف، المرجع السابق، ص: 20.
- 16- عبد الله الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع، 2007، ط: 1، ص: 11، 12.
- 17- بن حيدة يوسف، المرجع السابق، ص: 20.
- 18- أبو العباس أحمد عطا الله الصنهاجي، ولد في الأندلس وتوفي بها. أنظر الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر: بيير فونتانه الشرقية، 1906، ص: 296.
- 19- حميدي خميسي، التصوف الفلسفي في المغرب الإسلامي الوسيط إتجاهاته، مدارسه، أعلامه، الجزائر: وزارة الثقافة، 2007، ص: 20.
- 20- بن حيدة يوسف، المرجع السابق، ص: 21.
- 21- نفسه، ص: 21.
- 22- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، الجزائر: دار الخليل القاسمي، 2007، ط: 1، ص: 26.
- 23- دولة بني مريين أو الدولة الوطاسية: قامت ببلاد الريف حوالي 610هـ في عهد عبد الحق بدخولهم مراکش 668هـ بداية تاريخ دولتهم.
- 24- دولة بني زيان: أسسها يغمراسن بن زيان في تلمسان عام 613هـ.
- 25- الدول الحفصية نسبة إلى عبد الله بن عبد الواحد أبي حفص استقلوا عن الموحدين سنة 623هـ أنظر: ذو النون طه وآخرون، المرجع السابق، ص: 372، 395.
- 26- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزائر: دار البصائر، 2007، ج: 1، ص: 466.
- 27- بوداود عبید، المرجع السابق، ص: 162.
- 28- بن حيدة يوسف، المرجع السابق، ص: 23.
- 29- نفسه، ص: 24.
- 30- نفسه، ص: 25.
- 31- تولى منصور الموحدي الحكم (580هـ- 595هـ) نظم شؤون دولته، وعبر الأندلس في عام 586هـ، أنظر: ذو النون طه، المرجع السابق، ص: 370.
- 32- بن حيدة يوسف، المرجع السابق، ص: 25.
- 33- فيلاي مختار الطاهر، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، باتنة، الجزائر: دار الفن الجغرافي، (د.ت)، ط: 1، ص: 64.
- 34- ناصر الدين سعيد وني، الجزائر في التاريخ، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص: 38- 39.
- 35- بن حيدة يوسف، المرجع السابق، ص: 27.
- 36- ناصر الدين سعيد وني، المرجع السابق، ص: 38- 39.